

المقبس

الجزء الرابع من المجلد الثالث

ربيع الثاني سنة ١٣٢٦ موافق مايو (ايار) سنة ١٩٠٨

رسالة ابن المقفع في الصحابة (١)

اما بعد صلح الله امير المؤمنين وأتم عليه النعمة والبسه المعافاة والرحمة فان امير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولادة الشر يجمع موت مع جهلهم العجب والاستغناء ويستوثق لنفسه بالحجة ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص عن امورهم كما كان اولئك يكتفون بالدعة وبرشون بدحوض الحجة وانقطاع العذر في الامتناع ان يجتري عليهم احد برأي او خبر مع تسليط الديان . وقد عصم الله امير المؤمنين حين اهلك عدوه وشفى غليله ومكن له في الارض وآتاه ملكه وخزائنها من ان يشغل نفسه بالفتح والتفتيش والتائل والاخلاد وان يرضى ممن آوى بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه واكرم

(١) ظفرنا بهذه الرسالة والتاليات لها في كتاب المشور والمنظوم لاحمد بن ابي طاهر المتوفى سنة ٢٨٠ هـ المحفوظ في دار الكتب المصرية فاثبتناها في المقبس بعد ان صححناها امكننا تصحيحه من الفاظها واذهب قليل من القرى على هذا المخطوط النفيس الاصل ولا نعرف نسخة اخرى نقابل عليها ولا شذرات من هذه الرسائل نقلها فيما نذكر بعض مؤلفي الكتب المتداولة في الادب والمحاورة اكتفينا بتركها على ما وجدناها عسى ان يهدينا بعض اهل العلم الباحثين في الاقطار الى اصل نعارض به هذه الاعلاق النفسية التي اقتتها الايام من فلم ابن المقفع . اما رسالة الصحابة فالظاهر من سياقها ان المقصود بالصحابة اصحاب السلطان واطلاق الصحابة على اصحاب السلطان غير ما لوف لنا ولعلها رسالته المشهورة في السياسة

الله امير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره اياه وذلك من ابين علامات السعادة وانجح الاعوان على الخير . وقد قص الله عز وجل علينا من نبي يوسف بن يعقوب انه لما تمت ائمة الله عليه وآتاه الملك وعلمه من تأويل الاحاديث وجمع له شمله واقر عينه بابويه واخوته اثني على الله عز وجل نعمته ثم سلا عما كان فيه وعرف ان الموت وما بعده هو اولى فقال: توفي مسلماً والحقني بالصالحين .

وفي الذي قد عرفنا من طريقة امير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على ثناوله بالخبرة فيما ظن انه لم يبلغه اياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى اليه ولا يزيد صاحب الرأي على ان يكون مخبراً او مذكراً . وكل عند امير المؤمنين مقبول ان شاء الله . مع ان حمازيد ذوي الالباب نشاطاً الى اعمال ذوي الرأي فيما يصلح الله به الامة في يومها او غابر دهرها الذي اصبحوا قد طعموا فيه (٢) . ولعل ذلك ان يكون على يدي امير المؤمنين فان مع الطمع الجدة ومع اليأس القنوط . وقلاضعف الرجاء الا ذهب الرخاء . وطلب الموبس عجز وطلب الطامع حزم . ولم تدرك الناس نحن وآباؤنا الا وهم يرون فيها خلاً لا يقطع الرأي ويمسك بالافواه من حال وال لم يهجمه الاصلاح او اهمه ذلك ولم يثق فيه بفضل رأي او كان ذا رأي ليس مع رأيه صول بصراعة او حزم او كان ذلك استثناءً امته على الناس بنسب او قلة تقدم لما يجمع او يقسم او حال اعوان ينيل بهم الولاة ليسوا على الخير باعوان وليس له الى اقتلاعهم سبيل لمكانهم من الامر وخفاة الدول والفساد ان هو هاجهم او انتقص ما في ابديةهم او حال رعية مئزرة ليس لها من امرها النصف في نفسها فان اخذت بالشدة حميت وان اخذت باللين طفت . وكل هذه الخلائق قد طهر الله منها امير المؤمنين فآتاه الله ما آتاه في نيته ومقدرته وعزمه ثم لم يزل يرى ذلك منه الناس حتى عرفه منه جهالم فضلاً عن علمائهم . وصنع الله لامير المؤمنين الطيف الصنع في اقتلاع من كان بشركه في امره على غير طريقته ورأيه حتى اراحه الله وآمنه منهم بما جعلوا من الحجة والسبيل على انفسهم وما قوى الله عليه امير المؤمنين في رأيه واتباعه مرضاته واذل الله لامير المؤمنين رعيته بما جمع له من اللين والنعوف فان لان لاحد منهم في الاثخان (٣) له شهيد على ان ذلك ليس بضعف ولا مصانعة . وان اشتد على احد منهم في العفو شهيد على ان ذلك ليس بعنف ولا خرق مع امور سوى ذلك يكف عن ذكرها كراهة ان يكون كأننا نصبنا المدح . فما اخاف هذه الاشياء ان تكون عتاداً لكل جسيم من الخير في الدنيا والآخرة واليوم والغد والخاصة والعامة . وما ارجانا لان يكون امير المؤمنين بما اصلى الله الامة من بعده اشد اهتماماً من بعض الولاة بما لا يصلح رعيته في سلطانه وما اشد ما قد استبان لنا ان امير المؤمنين اطول

بأمر الامة عناية ولها نظراً وتقديراً من الرجل منا بخاصة اهله في دون هذا ما يثبت الامل وينشط للعمل ولا قوة الا بالله والله الحمد وعلى الله التمام .

فمن الامور التي يذكر بها امير المؤمنين ائمة الله به امر هذا الجند من اهل خراسان فانهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم منعة بما يتم فضلم ان شاء الله . اما هم فاهل بصير بالطاعة وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج وكف عن الفساد وذلل للولادة فيه حال لا اعلمها توجد عند احد غيرهم . واما ما يحتاجون فيه الى المنعة من ذلك تقويم ابديةهم ورأيتهم وكلامهم فان في ذلك اليوم اختلاطاً من رأس مفروط غالي وتابع متغير شاك . ومن كان انما بصول على الناس يقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة فهو كراكب الاسد الذي يوجل من رآه والراكب اشد وجلاً . فلوان امير المؤمنين كتب لهم اماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب ان يقول فيه ويكفوا عنه بالغاً في الحجة قاصراً عن الغلو يحفظه رؤسائهم حتى يقود به دهاءهم ويتهد به منهم من لا يؤبه له من عرض الناس لكان ذلك ان شاء الله لرأيهم صلاحاً وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً . فان كثيراً من المتكلمين من قواد امير المؤمنين اليوم انما عامة كلامهم فيما يؤمر الامر ويرغم الرغم ان امير المؤمنين لو امر الجبال ان تسير سارت ولو امر ان تستدير القبلية بالصلاة فعل ذلك وهذا كلام قلما (يرفضه) من كان مخالفاً وقلما يرد في سمع السامع الا احدث في قلبه ريبة وشكاً . والذي يقول اهل القصد من المسلمين هو اقوى للامر واعز للسلطان واقمع للمخالف وارضى للموافق واثبت للعذر عند الله عز وجل .

فانا قد سمعنا فريقاً من الناس يقولون لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق . بنوا قولهم هذا بناء معوجاً فقالوا ان امرنا الامام بمعصية الله فهو اهل ان يعصى وان امرنا الامام بطاعة الله فهو اهل ان يطاع . فاذا كان الامام يعصى في المعصية وكانت غير الامام يطاع في الطاعة فالامام ومن سواه على حق الطاعة سواء . وهذا قول معلوم يجده السلطان ذريعة الى الطاعة والذي فيه أمنيته لئلا يكون للناس نظائر ولا يقوم بأمرهم امام ولا يكون على عدوهم منهم ثقل . سمعنا آخرين يقولون بل نطيع الائمة في كل امورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ولا يكون احد منا عليهم حسيباً هم ولا الامة والعلم ونحن الاباع وعلينا الطاعة والتسليم . وليس هذا القول باقل ضرراً في توهين السلطان وتجهين الطاعة من القول بالذي قبله لانه ينتهي الى الفطيل المتفاحش من الامر في استحلال معصية الله جهاراً صراحاً . وقال اهل الفضل والصواب : قد اصاب الذين قالوا : لا طاعة للمخلوق في معصية الله والى ولا يصيبوا في تعطيلهم طاعة الائمة وتخفيفهم اياها واصاب الذين اقرروا بطاعة الائمة لما حققوا منها ولم

يصيبوا ما ايسر من ذلك في الامور كلها فاما اقرارنا فانه لا يطاع الامام في معصية الله
 فانما ذلك في عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لاحد عليها سلطاناً . ولو ان الامام
 نهى عن الصلاة والصيام والحج او منع الحدود واباح ما حرم الله لم يكن له في ذلك امر .
 فاما اثباتنا للامام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فان ذلك في الرأي والتدبير والامر
 الذي جعل الله ازمته وعرا به يدي الائمة ليس لاحد فيه امر ولا طاعة من الغزو والقول
 والجمع والقسم والاستعمال والترك والحكم بالرأي فيما لم يكن فيه اثر وامضاء الحدود والاحكام
 على الكتاب والسنة ومحاربة العدو ومخادعته والاخذ للمسلمين والاعطاء عليهم . وهذه
 الامور واشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة وليس لاحد من الناس فيها حق الا الامام
 ومن عصى الامام فيها او خذله فقد اوتغ نفسه . وليس يفترق هذان الامران الا ببرهان من
 الله عز وجل عظيم . وذلك ان الله جعل قوام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم في خلتين
 الدين والعقل ولم تكن عقولهم وان كانت نعمة الله عز وجل عظمت عليهم فيها باللغة معرفة
 الهدى ولا مبلغه اهلها رضوان الله الا ما اكمل لهم من النعمة بالدين الذي شرع لهم وشرح
 به صدر من اراد هداة منهم ثم لو ان الدين جاء من الله لم يغادر حرقاً من الاحكام
 والرأي والامر وجميع ما هو واراد على الناس وجار فيهم مذبح الله رسوله صلى الله عليه وسلم
 الى يوم يلقونه الا جاء فيه بزيمة لكانوا قد كفوا غير وسعهم فضيق عليهم في دينهم وآتام
 ما لم تسع استماعهم لاستناعه ولا قلوبهم لفهمه ولطارت عقولهم والبايهم التي امن الله بها عليهم
 ولكانت لغوا لا يحتاجون اليها في شيء ولا يعلمونها الا في امر قد آتام به تنزيل ولكن الله
 من عليهم بدينهم الذي لم يكن يسعه رأيهم كما قال عباد الله المنقون : ما كنا لنهتدي
 لولا ان هدانا الله .

ثم جعل ما سوى ذلك من الامر والتدبير الى الرأي وجعل الرأي الى ولاية الامر ليس
 للناس في ذلك الامر شيء الا الاشارة عند المشورة والاجابة عند الدعوة والتصيحة بظهور
 الغيب . ولا يستحق الوالي هذه الطاعة الا باقامة العزائم والسنن مما هو في معنى ذلك . ثم ليس
 من وجوه القول وحده بالتمس فيه بالتمس اثبات فضل اهل بيت امير المؤمنين على اهل بيت
 (من سواء) وغير ذلك مما يحتاج الناس الى ذكره الا به موجود فيه من الكلام الناضل
 المعروف مما هو ابلغ مما يغويه العالمون فان الحجة ثابتة والامر واضح بحمد الله ونعمته .

ومما ينظر فيه اصلاح هذا الجند ألا يبوي احداً منهم شيئاً من الخراج فان ولاية الخراج
 مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم ويتخونون عنهم لانهم اهل ذاك ودعوى
 بلا . واذا خلا بالدرهم والدنانير اجتراً عليهما واذا وقع في الخيانة صار كل امر مدخولاً

أصيحته وطاعته فان حبل بينه وبين رفعة امرسته الحمية مع ان ولاية الخراج داعية الى ذلة وعقوبة وهوان . وانما منزلة المقائل منزلة الكرامة واللفظ . وما ينظر فيه من امرهم ان منهم من المجبولين من هو افضل من بعض قاداتهم فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة .

ومن ذلك تعهد اديبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والامانة والعصمة والمباينة لاهل الهوى وان يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زبي المترفين وشكاهم مثل الذي يأخذ به امير المؤمنين في امر نفسه . ولا يزال يطلع من امير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقتته للاتراف والاسراف واهلها ومعبته القصد والتواضع ومن اخذ بهما حتى يعلموا ان معروف امير المؤمنين محظور عن يكثره بخلاف ان ينقسه سرفاً سيف العطر واللباس والمعالاة بالنساء والمراتب فان امير المؤمنين يؤثر بالمعروف من وجهه المعروف والمؤاساة . ومن ذلك امر اوزاقهم ان يوقت لهم امير المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة اشهر او اربعة او ما بدا له وان يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من اقامة ديوانهم وتحمل اسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه فينقطع الاستبطاء والشكوى . فان الحكمة الواحدة تخرج من احدهم في ذلك اهل ان تستعظم فان باب ذلك جدير ان يحسم مع ان امير المؤمنين قد علم كثرة اوزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم وان هذا الخراج ان يكن راجحاً لغلاء السعر فانه لا بد من الكساد والكسر وان لكل شيء دوة وغزارة وانما درور خراج العراق بارتفاع الاسعار وانما يحتاج الجند اليوم الى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر فمن حسن التقدير ان شاء الله ان لا يدخل على الارض ضرر ولا يبت المال نقصان من قبل الرحمن الا دخل ذلك عليهم في اوزاقهم مع انه ليس عليهم في ذلك نقصان لانهم يشترون بالقليل مثل ما كانوا يشترون بالكثير . فاقول لو ان امير المؤمنين ما خلا شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً ويجعل بعضه علقاً فاعطوه باعيانهم فان قومت لهم قيمة تخرج ما خرج على حسابه قيمة الطعام والعلف لم يكن في اوزاقهم لذلك نقصان عاجل يستكرونه وكان ذلك . نراهم لمل العدو وانصاف بيت المال من انفسهم فيما يستبطلون مع انه ان زاد السعر اخذوا بحصصهم من فضل ذلك . ومن جماع الامر وقوامه باذن الله ان لا يخفى على امير المؤمنين شيء من اخبارهم وحالاتهم وباطن امرهم بخراسان والعسكر والاحاراف وان يحقر في ذلك التفقه ولا يستعين فيه الا بالثقات النصاح فان ترك ذلك واشباهه احزم يشاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير جنة للبهالة والكذب

وما يذكر به امير المؤمنين امتع الله به امره هذين المصيرين فانهم بعد اهل خراسان اقرب الناس

الوان يكونوا شيعته ومعينيه مع اختلاطهم باهل خراسان وانهم منهم وهامتهم وانما ينظر امير المؤمنين منهم . صدق ولرابطتهم او ما اراد من امورهم معرفته استئصال اهل خراسان ذلك لهم من امرهم مع الذي في ذلك من جمال الامر واختلاط الناس بالناس العرب بالجمع واهل خراسان بالمصريين .

ان في اهل العراق بالامير المؤمنين من الفقهاء والعفاف والالباب والالسة شيئاً لا يكاد يشك انه ليس في جميع من سواهم من اهل القبلة مثله ولا مثل نصفه فلواراد امير المؤمنين ان يكتفي بهم في جميع ما يلحق له اهل الطبقة من الناس رجونا ان يكون ذلك فيهم موجوداً . وقد ازرى باهل العراق في تلك الطبقة ان ولاية العراق فيما مضى كانوا اشرار الولاة وان اعوانهم من اهل امصارهم (كذلك) تحمل جميع اهل العراق على ما ظهر من اولئك القسول وتعلق بذلك اعتداؤهم من اهل الشام فتعوه عليهم ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال الا بالاقرب فالاقرب مما دنا منهم او وجدوه بسبيل شيء من الامر فتوقع رجال مواقع شائنة لجميع اهل العراق حيث ما وقعوا من صحابة خليفة او ولاية عمل او موضع امانة او موطن جهاد وكان من رأي اهل الفضل ان يقصدوا حتى يلتصقوا فابطأ ذلك بهم ان يعرفوا وينتفع بهم وان كان صاحب السلطان لمن لم يعرف الناس قبل ان يليهم ثم لم يزل يسأل عنهم من يعرفهم ولم يستثبت في استقصائهم فزال الامور عن مراكرها ونزلت الرجال عن منازلها لان الناس لا يلقونه الا متصنعين باحسن ما يقدرين عليه من الصمت والكلام غير ان اهل التقصم اشد تصنعاً واحلى السنة وارفق تطفلاً للوزراء او تحلاً لان يثنى عليهم من وراء وراء . فاذا آثر الوالي ان يتخلص رجلاً واحداً ممن ليس لذلك اهلاً دعا الى نفسه جميع ذلك الشرح وطعموا فيه واجتروا عليه وتوردوه وزحموا على ما عنده واذا رأى ذلك اهل الفضل كفوا عنه وابتعدوا منه وكوهوا ان يروا في غير موضعهم او يزاحموا غير نظرائهم .

وما ينظر امير المؤمنين فيه من امر هذين المصريين وغيرها من الامصار والنواحي اختلاف هذه الاحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها امراً عظيماً في الدماء والفروج والاموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية اخرى غير انه على كثرة الوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم يقضي به قضاة جائز امرهم وحكمهم مع انه ليس مما ينظر في ذلك من اهل العراق واهل الحجاز فربق الا قد حجبهم العجب في ابديهم والاستخفاف بمن سواهم فاقبحهم ذلك في الامور التي يشفع بها من سمعها من ذوي الالباب .

اما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة حتى يبلغ ذلك به الى ان يسفك
الدم بغير بينة ولا حجة على الامر الذي يزعم انه سنة واذا سئل عن ذلك لم يستطع ان
يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم او ائمة الهدى من بعده . واذا
قيل له اي دم سفك على هذه السنة التي يزعمون قالوا: فعل ذلك عبد الملك بن مروان او
امير من بعض اولئك الامراء واتما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام عن رأيه ان يقول
في الامر الجسيم من امر المسلمين قولاً لا يوافق عليه احد من المسلمين ثم لا يستوحش لانفراده
بذلك وامضائه الحكم عليه وهو مقر انه رأي منه لا يحتاج بكتاب ولا سنة . فلورأى امير
المؤمنين ان يأمر بهذه القضية والسير المختلفة فترفع اليه في كتاب ويرفع معها ما يحتاج به
كل قوم من سنة او قياس ثم نظر امير المؤمنين في ذلك وامضى في كل قضية رأيه الذي
يلهمه الله ويعزم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً عزماً لرجونا
ان يجعل الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ورجونا ان يكون
جتماع السير قربة لاجماع الامر برأي امير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من امام آخر
آخر الدهر ان شاء الله .

فاما اختلاف الاحكام اما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه يدبره قوم على وجه
و يدبره آخرون على وجه آخر فينظر فيه الى احق الفريقين بالتصديق واشبه الامر بين
بالعدل . واما رأي اجراء اهل على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط في اصل المقايسة وابتدأ
امر على غير مثاله . واما الطول ملازمته القياس فان من اراد ان يلزم القياس ولا يفارقه ابداً
في امر الدين والحكم وقع في الورطات ومضى على الشبهات وغمض على القبيح الذي يعرفه
ويبصره فاني ان يتركه كراهة ترك القياس . واتما القياس دليل يستدل به على المحاسن فاذا
كان ما يقود اليه حسناً معروفاً أخذ به واذا قاد الى القبيح المستنكر ترك لان المبتغي ليس
غير القياس يعني ولكن محاسن الامور ومعروفها وما الحق الحق باهله . ولو ان شيئاً مستقبلاً
على الناس ومناقداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك اولى ان يعتبر بالمقاييس فانه لو اراد ان
يقوده الصدق لم ينقد له . وذلك ان رجلاً لو قال: اتأمرني ان اصدق فلا اكذب كذبة
ابداً لكان جوابه ان يقول نعم ثم لو التمس منه قود ذلك فقال: اتصدق في كذا وكذا حتى
يبلغ به ان يقول الصدق في رجل هارب استدلي عليه طالب لبطشه فيقتله لكسر عليه قياده
وكان الرأي له ان يترك ذلك وينصرف الى المجمع عليه المعروف المستحسن .

ومما يذكر به امير المؤمنين اهل الشام فانهم اشد الناس مؤونة واخوفهم عداوة
وبائقة . وليس يؤاخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستغياح على المودة فمن

الرأي في امرهم ان يختص امير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً او يعرف منه نصيحة او وفاة فان اولئك لا يلبثون ان ينفصلوا عن اصحابهم في الرأي والهوى ويدخلوا فيما حملوا عليه من امرهم فقد رأينا اشباه اولئك من اهل العراق الذين استدخلهم اهل الشام وليس احد في امر اهل السلم على القصاص (٩) حرّموا كما كانوا يحرمون الناس وجعل فيهم الى غيرهم كما كان في غيرهم اليهم ونحواً عن المناير والمجالس والاعمال كما كانوا ينفون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ومنعت منهم المرافقة كما كانوا يمنعون الناس ان ينالوا معهم اكلة من الطعام الذي يصنعه امراؤهم للعامة . فان رغب امير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة وما اشبهها فلم يعارض ما عاب ولم يثقل ما يخطئ كان العدل ان يقتصر بهم على فيهم فيجعل ما خرج من كور الشام فضلاً عن النفقات وما خرج من مصر فضلاً عن حقوق اهل المدينة ومكة بان يجعل امير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم او يزيدوا ينقص غير انه يأخذ اهل القوة والفناء وخفة المأونة والعفة في الطاعة ولا يفضل احداً منهم على احد الا على خاصة معلومة ويكون الديوان كالغرض المستأنف ويأمر لكل جند من اجناد اهل الشام بعدة من العيال يقتربون عليها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه فيمن مات من عيالاتهم ولا يصنع باحد من المسلمين .

واما ما يخوف التخوفون من نزواتهم فلعمري لئن أخذوا بالحق ولم يؤخذوا به انهم لخلقاه ان يكون لهم نزوات ونزقات ولكننا على مثل اليقين بحمد الله من انهم لم يشركوا بذلك الا انفسهم وان الدائرة لامير المؤمنين عليهم آخر الدهر ان شاء الله . فانه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقية بتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدميرهم .

ومما يذكر به امير المؤمنين امر اصحابه فان من اولى امر الوالي منه بالثبوت والتعزيز امر اصحابه الذين هم بهاء فئاته وزينة مجلسه والسنة رعيته والاعوان على رأيه ومواقع كرامته والخاصة من عامته فان امر هذه العصابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزارة والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح مفسداً للعصب والادب والسياسة داعياً للاشرار طارداً للاخيار فصارت صعبة الخليط امراً متخيفاً قطع فيه الاوناد وتزهّد فيه من كان يرغب فيما دونه حتى اذا التقينا ابا العباس رحمة الله عليه وكنت في ناس من صلحاء اهل البصرة ووجوههم فكنت في عصابة منهم ابوا ان يأتوه فنعم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختياراً للمعصية على سوء الموضع لا يعتدرون في ذلك الا بضياح المكثب والدعوة والمداخل يقولون هذه منزلة كان من هو اشرف من ابائنا يرغبون

فيما هو دونها عند من هو اصغر امراء ولائنا اليوم ولكنها قد كانت مكربة وحسباً اذ الناس ينظرون و يسألونهم فاما اليوم ونحن نرى فلاناً وفلاناً ينفر بامثالهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما هاهنا بامير المؤمنين اكرمك الله اما يصير العدل كله الى تقوى الله عز وجل وانزال الامور منازلها فان الاول قال

لا يصلح الناس فوضى لامرأة لهم ولا سراة اذا جهالم سادوا
وقال هم سودوا نصراً وكل قبيلة يبين عن احلامها من يسودها

وان امر هذه الصحابة قد كان فيه اعاجيب دخلت فيه مظالم . اما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول ما رأينا أعجوبة قط اعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى ادب ذي تباعة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في اهل مصر قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء الا انه مكنه من الامر صاغر فاحتوى حيث احب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من ابناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة امير المؤمنين واهل بيوت العرب ويجري عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قريش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ولا فقه في دين ولا بلاء سيف بمجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ولا غناء حديث ولا حاجة اليه في شيء من الاشياء ولا عدة يستعد بها وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة الا انه خدم كاتباً او حاجباً فاخبر ان الدين لا يقوم الا به حتى كتب كيف شاء ودخل حيث شاء .

واما المقالة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خصت قريشاً وعمت كثيراً من الناس وادخلت على الاحساب والروايات محنة شديدة وضياء كثيراً فان في اذن الخليفة والمدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكماً عظيماً على ان الناس في انسابهم واطوارهم وبلاء اهل البلاء منهم وليس ذلك كخواص المعروف ولطيف المنازل والاعمال التي يختص بها المولى من احب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضي فيه للهاذين من اهل السوابق والمأثر من اهل الباقيين واهل البلاء والغناء بالعدل او بما يحال فيه عليهم فان احق المظالم بتجيب الرفع والتغيير ما كان ضرره عائياً وكان للسلطان شائناً ثم لم يكن في رفعه مؤونة ولا شغب ولا توغير بصدور عامة ولا للقوة ولا اضرار سبب (٩) .

والصحابة امير المؤمنين اكرمهم الله مزية وفضل وهي مكربة سنية حربة ان تكون شرفاً لاهلها وحسباً لاعدائهم حقيقة ان تصان وتحظرو ولا يكون فيها الا رجل بدر بخضلة من

الخصال ومن رجل له عند امير المؤمنين خاصة بقرابة او بلاء او رجل يكون شرفه ورأيه وعمله اهلاً لمجلس امير المؤمنين وحديثه ومشورته او صاحب نجدة يعرف بها ويستعد لها يجتمع مع نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة ورجل فقيه مصلح يوضع بين اظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه او رجل شريف لا يفسد نفسه او غيرها فاما من يتوسل بالشفاعات فانه يكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجن رأياً ولا يزيل امراً عن مرتبته ثم تكون تلك الصحابة الخاصة على منازلها ومدخلها الا يكون للكتاب فيها امر في رفع رزق ولا وضعه ولا للعاجب في تقديم اذن ولا تأخير.

ومما يذكر به امير المؤمنين امر فتيان اهل بيته وبني ابيه وبني علي وبني العباس فان فيهم رجالات لو تمتعوا بجسام الامور والاعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لا أخرى .
ومما يذكر به امير المؤمنين امر الارض والخراج فان اجسم ذلك واعظمه خطراً واشده مؤونة واقره من الضياع ما بين سهله وجبله ليس لها تفسير على الراسنيق والقرى فليس للعمال امر يشتهون اليه ولا يحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على اهل الارض بعدما يتأفقون لها في العارة ويرجون لها فضل ما تعمل ايديهم . فسيارة العمال فيهم احدى شتين اما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتبع الرجال والرسانيق بالغالاة ممن وجد واما رجل صاحب مساحة يستخرج من زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من عمره ويسلم من اخب مع ان اصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة الا وقد غيرت وظيفتها مراراً تخفيت وظائف بعضها وبقيت وظائف بعض فلو ان امير المؤمنين اعمل رأيه في التوظيف على الرسانيق والقرى والارضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وثابت الاصول حتى لا يؤخذ رجل الا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة الا كان له فضلها وتقعها لرجونا ان يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للارض وحسم لابواب الخيانة وعشم المال . وهذا رأي مؤوته شديدة ورجاله قليل ونقمة متأخر . وليس بعد هذا في امر الخراج الا رأي قد رأينا امير المؤمنين اخذ به ولم نره من احد قبله من تخيير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم .

ومما نذكر به امير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليامة وما سوى ذلك ان يكون من رأي امير المؤمنين اذا مخفت نفسه عن اموالها من الصدقات وغيرها ان يختار لولايتها الخيار من اهل بيته وغيرهم لان ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله امير المؤمنين واكرمه بها من الرأي الذي هو باذن الله حمى ونظام لهذه لامور كلها في الامصار والاجناد والثغور والكور . ان بالناس من الاستخراج والاداء ما قد

علم أمير المؤمنين وبهم من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو اشد من حاجتهم الى اقواتهم التي يعيشون بها . واهل كل مصر وجند او ثغر فقراء الى ان يكون لهم من اهل الفقه والسنة والسير والتسوية مؤدون مقومون يذكرون ويذكرون الخطأ ويعلمون عن الجمل ويتبعون عن البدع ويحذرون الفتن ويتفقدون امور عامة من عوابع اظهرهم حتى لا ينجي عليهم منها مهم ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأي والرفق والتعفو يرفعون ما اعياهم الى ما يرجون قوته عليهم مأمونين على سير ذلك وتحصينه بصراء بالرأي حين يبدو او اطباء باستئصاله قبل ان يتمكن . وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلك وتلطف لهم واعينوا على رأيهم وقوا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسطهم له . وخطر هذا جسيم في امرين احدهما رجوع اهل الفساد الى الصلاح واهل الفرقة الى الالفة والامر الاخر ان لا يتحرك متحرك في امر من امور العامة الا وعين ناصعة ترمقه ولا يمس هامس الا واذن شفيقة تصيح نحيوه . واذا كانت ذلك لم يقدر اهل الفساد على تزيين الامور وتلقيحها واذا لم تلتحم كان نتائجها باذن الله مأمونا .

وقد علمنا علماً لا يخالطه شك ان عامة قط لم تصلح من قبل انفسها ولم يأتها الصلاح الا من قبل خاصتها . وان خاصة قط لم تصلح من قبل انفسها وانما لم يأتها الصلاح الا من قبل امامها . وذلك لان عدد الناس في ضعفهم وجها لهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ولا يحكمون العلم ولا يتقدمون في الامور فاذا جعل الله فيهم خواص من اهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم اهتمت خواصهم بامور عوامهم واقبلوا عليه بحمد ونصح ومثابرة وقوة جعل الله ذلك صلاحاً لجامعتهم وسبباً لاهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما اتم الله به عليهم وبلائاً الى الخير كله . وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم واعظم من ذلك . فبالامام يجمع الله امرهم ويكبت اهل الطعن عليهم ويجمع رأيهم ويكلمهم ويبين لهم عند العامة منزلتهم ويحمل لهم الحجة والايدي والمقال على من نكب عن سبيل حقهم . فلما رأينا هذه الامور ينظم بعضها بعض وعرفنا من امر أمير المؤمنين ما يشبه جمع الله خواص المسلمين على الرغبة في حسن المعاونة والمؤازرة والحي في صلاح عامتهم طمعنا لهم في ذلك يا أمير المؤمنين وطمعنا فيه لعامتهم ورجونا ان لا يعمل بهذا الامر احد الا رزقه الله المتابعة فيه والقوة عليه . فان الامر اذا اعان على نفسه جعل للقاتل مقالا وهباً للساعي نجاحاً . ولا حول ولا قوة الا بالله وهو رب الخلق وولي الامر يقضي في امورهم يدبر امره بقدرة عزيزة وتلم سابق فتسأله ان يعزم لأمير المؤمنين على المرشد ويحصنه بالحفظ والاثبات والسلام والله الحمد والشكر .